ابنة

قصة بقلم عبد الله خيرت

انها وحدها اخيرا .. هدأت الضجة المفاجئة التي ادهشتها بعد ان ذهب زوجها لينام وجلست هي تنتظر حتى يمر اخر قطار .. ومن جديد عاد للبيت هدوؤه وصمته . وكان الصراخ الغاضب الذي حدث منذ قليل كان ينبعث من بيت اخر بعيد .. وكان النور مطفأ في كل الحجرات . اما هذا الضوء الخفيف فقد كان يتسلل من مصباح الشارع الواقف امام البيت تماما ..

وحاولت ان تبعد عن رأسها صدى الكلمات القاسية الغاضبة التي سمعتها من زوجها الان وان تنسى ما حدث كله وتعيش في تلك اللحظة التي تحبها .. فقد كان يلذ لها وهي في وحدتها هذه تنتظر قطار اخر الليل ان تسرح مع خواطرها وان تفكر على هواها فتسأل نفسها سؤالا واحدا لا تسأم من تكراره كل ليلة .. ماذا تفعل لو رأت « فتحي » ابنها في القطار الذي سيمر الان ؟؟ وكانت بعد ان تلقي على نفسها هذا السؤال تعتدل في جلستها وتغمض عينيها فتتصور انها في لحظة كهذه ستجد نفسها قد طارت من النافذة واصبحت معه في القطار او ان القطار سيقف فجأة امام البيت وينزل منه ابنها فتجري هي بملابسها هذه وتعانقه في وسط الشارع .. واحيانا كانت تقول لنفسها بأسى انها لن تستطيع رؤيته في قطار الليل فالقطار يجري بسرعة كأنه يتعمدها عندما يمر امامها وكذلك فان ابنها قد تغيرت هيئته كثيرا خلال الشهور الماضية ولكنها بعد ان تغلق النافذة وهي قلقة مشغولة وبعد ان تسكت ضوضاء الشارع وتصبح الدنيا كلها سكونا ستذهب لتتأكد من ان باب الشقة مغلق كما تفعل كل ليلة ولكنها ستتسمر في مكانها امام الباب اذ تسمع صوت اقدام تصعد السلم بسرعة ويدهشها ان الصوت انقطع امام شقتهم وتحاول ان تذهب لتنام فمن الذي يزورهم في هذا الوقت من الليل غير ان يدا قوية تطرق الباب وتكتم هي انفاسها وتنتظر حتى تسمع الطرق مرة اخرى وقبل ان تقول « مين » باختصار وشك ودهشة ستجده يقول بصوته الهادىء المؤدب : « افتحي يا ماما .. انا فتحي » .

حاولت ان تعيش في تلك اللحظة وتسرح مع افكارها وتنسى كل شيء الا ان لها ابنا غائبا تنتظر عودته .. ولكن الدموع رغما عنها كانت تملأ عينيها وافكارها تتوقف بعناد عند الكلمات التي قالها زوجها الان فتحس لاول مرة انها وحيدة وان احدا لا يهتم بها ويبدو لها زوجها رجلا غريبا قاسيا فلم يكن في الكلمات القصيرة الهادئة التي قالتها له سببا يدعوه لان يثور ويغضب بهذه الطريقة ..

كل ليلة لا حديث لهما الا فتحي .. كيف يعيش وماذا يأكل وهل يستطيع معاشرة الناس في تلك البلاد البعيدة .. والليلة كانت تسأله بهدوء مثل كل ليلة :

ـ الجوابات اتأخرت ليه يا ترى ؟ خمسة وعشرين يوم من غير ولا كلمة ؟

لم تقل الا هذه الجملة الهادئة ومع ذلك فقد خيل اليها ان زوجها كان ينتظر ان تقولها فقد رمى الجريدة التي كان يطالعها بشرود وتجهم وجهه وصاح بكل قوة :

ـ انا عارف .. انا كنت معاه .. هو ما فيش حد له ابن غايب الا انت .. انت ..

لقد كانت لحظة اخرى من هذا الصراخ الذي لا سبب له ....

لحظة اخرى وتترك له البيت وتخرج تهيم على وجهها الى حيث لا تدري .. ماذا فعلت هي حتى يقول انت مجنونة وستصيبيني بالجنون و .... وكلام كثير لم تسمعه منه طوال العشرين عاما التي عاشتها معه .. وكل هذا لانها قلقة من اجل ابنها .. ابنهما ..

ولفت السجادة الصغيرة حول قدميها وهي تفكر بأن زوجها قد استغرق الان في النوم الهادىء .. لو انها قالت « لا » وتمسكت بها يوم السفر .. لقد تجمعوا كلهم حولها يضحكون وكأنهم في عيد .. كلهم ابتهجوا وزوج ابنتها وفتحي وزوجها .. نعم وزوجها كان يضحك معهم .. « مبروك يا فتحي .. كلها كام شهر ويبجي باشمهندس قد الدنيا » .. اما هي فلم تقل شيئا .. ظلت صامتة وكأن المسألة لا تعنيها في شيء كأنه ليس مهما عندها ان يغيب ابنها ثمانية شهور طويلة لا تراه فيها ولا تعرف كيف يعيش وكيف يأكل وينام .. ولم تضحك يومها الا بعد ان وعدها فتحي بانه سوف يرسل لهم كل اسبوع خطابا .. وها هي الاشهر الثمانية قد مرت ولم تكن خطاباته منتظمة ابدا وخمسة وعشرون يوما مضت دون ان يرسل كلمة واحدة .. فاذا ارادت ان تعرف السبب اتهمها زوجها بالجنون .. لم يبق الا القطارات تنتظرها من اول النهار الى اخر الليل ..وهل من المعقول ان يأتي فتحي دون ان يكتب لهم انه سيحضر ؟ « ربما .. جايز جدا .. ممكن قوي » .. هكذا قال لها زوجها عندما كانت تلح في الاسئلة عن الخطابات والتلغرافات والشهور الثمانية التي انقضت ..

وانها لتعجب من نفسها كيف ارتبطت القطارات ومواعيدها بذهنها في هذه الايام ارتباطا عجيبا فهي تصلي الظهر عندما يمر القطار وتطبخ عندما يمر قطار اخر وحين توقظ زوجها بعد الظهر تنبهه الى ان قطار الساعة الرابعة مر منذ وقت طويل ..

وزوجها لا يعرف كم تحب هذا البيت الذي لا يفصله عن شريط القطار الا ذلك الشارع الضيق .. وكثيرا ما كان يقترح عليها ان ينتقلوا الى بيت اخر هادىء بعيدا عن ضجة القطارات فكانت تقيم الف اعتراض على اقتراحه وتظل تحدثه عن مزايا هذا البيت وينصت لها في دهشة ثم يقول :

ـ غريبة جدا .. كل الحاجات دي ممكن نلاقيها في بيت تاني ..

ـ ازاي بس .. ده احسن بيت في الدنيا ..

وهدأت الحركة في الخارج واحست بأن الجو قد ازداد برودة فعرفت ان القطار تأخر عن موعده وكانت تريد ان تنام هي الاخرى كما ينام زوجها ولكنها منذ حشرت جسمها في هذا المقعد بدا لها انه قد تخدر وانها يمكن ان تظل هكذا طول الليل ..

وتناهى الى سمعها صفير القطار المتقطع من بعيد فقامت متثاقلة ومرت العربات المتارجحة امامها .. كانت اغلب النوافذ مغلقة والركاب القلائل الذين استطاعت رؤيتهم كانوا يغرزون ذقونهم في اسفل رقابهم بشكل متعب ..

وقصدت الباب .. كانت تريد ان تفتحه بضجة ليعرف زوجها انها لا زالت مستيقظة ولكن يدها برغمها تراخت على مقبضه ففتحته بهدوء اكثر من كل ليلة .. وحين اصبحت بجواره بدت لها ملامحه في الضوء الخافت هادئة مرتاحة كما لو كان يريد ان يضحك..وازعجها تنفسه المنتظم العميق فقالت لنفسها انه لا يمكن ان يستيقظ ولو ان

قنبلة انفجرت بجواره لما احس بها ولظل هادئا كما هو الان ..

كيف لم تتنبه الى هذا من قبل ؟؟ انها طوال هذه الاشهر لم تره ذات مرة مهتما باخبار ابنه . وفي الوقت الذي كانت هي فيه تمرض مرضا حقيقيا لان فتحي كتب لهم ان اوقية اللحم بسبعة قروش وتتساءل وهي مغيظة كيف يستطيع ابنها ان ياكل . كان زوجها يسخر من تفكيرها ويضحك بصوت مرتفع حتى تكاد ضحكاته تسمع في الشارع .. حتى الرسائل كان ينساها في جيبه ولا يتذكرها الا في المساء فيقول وكأنه يلقي امرا تافها صغيرا « فتحي يا ستي بيسلم عليكي » كم كانت تؤلمها هذه الجملة . وحين تصر وهي غاضبة على ان يقرأ لها الرسالة كلها كان يغمغم ببعض كلماتها ضجرا وكأنه يكلم نفسه .. وكانت جمل كثيرة تمر دون ان يقرأها .. كانت هي تعرف ذلك عندما تذهب بالرسالة الى ابنتها فتقرؤها لها مرات كثيرة وببطء شديد حتى تكاد تحفظها ..

وحين قدمت له افطاره في الصباح لاحظت انه يأكل بشراهة ولم يكن يحول وجهه عن الطعام الذي امامه كأنه نسي الدنيا وما فيها واصبح اهتمامه محصورا في ان يأكل فقط .. وكان وجهه يبدو هذا الصباح لامعا متفتحا وقد اختفت تجاعيده الكثيرة تماما .. ان من يراهما الان لا يمكنه ان يلاحظ انه يكبرها بعشر سنوات طوال بل ربما بدت هي اكبر منه ..

وها هو زوجها قد خرج دون ان يتبادلا اي كلمة واصبحت وحدها بالبيت وسوف يعود بعد الظهر وتسأله هي كما تفعل كل يوم « ما فيش جوابات » ولن يرد عليها بشيء وربما ثار وغضب ووصفها بالجنون ..

وكانت قد اكتشفت منذ مدة طويلة حين قارنت الصور الصغيرة التي ارسلها فتحي بصورته الكبيرة في حجرة الجلوس ان صحته قد ساءت ولكنها في هذا الصباح اخذت تحدق في الصورة المعلقة في حجرة الجلوس شاردة .. ولا تعرف كيف هبط عليها فجأة هذا الخاطر الغريب فاكتشفت ان فتحي لا يشبه اباه .. واخذت تديم النظر الى كل الصور الموجودة .. ولكن كل فترة كانت تمر كانت تؤكد لها هذا الخاطر الذي انبثق في ذهنها .. انه لا يشبه اباه .. انه لا يشبهه ابدا .. الحواجب والعيون ؟؟ لا لا .. هذه اشياء يشترك فيها اكثر الناس دون ان تكون بينهم اية صلة .. وكانت تريد ان تطرد هذا الخاطر المزعج ولكن افكارها تريثت عنده بعناد.. وهي نفسها لم تفعل شيئا لتطرد هذا الخاطر .. كانت تبتسم وهي تقلب في الصور وتبدو كما لو كانت سعيدة لانها تفكر هكذا .. انها تريد ان تعرف هل فتحي ابنه ؟ .. وتلفتت حولها وهذه الفكرة المخجلة تدق رأسها : لو ان زوجها او اي انسان اخر وجه اليها هذا السؤال لقتلت نفسها ولكنها وهي وحدها الان استعذبت ان يلح هذا السؤال على ذهنها .. انها وحدها التي يمكنها الاجابة على هذا السؤال .. وانها لتعرف ان فتحي ابنهما حقا ومع ذلك فقد رجعت الى ايام زواجها تفتش كل لحظاتها بعناد واصرار .. وتقف في كل نوافذ البيوت التي سكنوها وتعد المرات التي خرجت فيها وحدها او مع زوجها وتحس ببرودة او حرارة كل الايدي التي سلمت عليها في اي مناسبة .. ومع ذلك فقد خرجت بنتيجة لم تعجبها .. اذ ان هذا الرجوع الى الماضي قد اكد لها حقيقة واحدة هي ان فتحي ابنهما معا ..

لكنها صاحت فجأة « الله .. ده موش شبهي كمان .. موش شبهي ابدا .. موش ابننا خالص » لقد ولدته في المستشفى وكان هنا نساء كثيرات يلدن ولا بد انها اخذت ابن امرأة اخرى ! نعم هذه هي الحقيقة وتغيرت حالتها فجأة واحست انها تريد ان ترى زوجها الان لتقول له وهي تضحك : ان فتحي ليس ابنهما .

وتأخر زوجها في هذا اليوم فلم يحضر الا في الساعة الثالثة وفتحت له الباب ولكنها لم تستطع ان تكلمه فقد كان معه رجل غريب رأته عندهم مرتين او ثلاثا .. ومن جديد اكتأبت . كانت تريد ان تحكي لزوجها الحادثة التي لا يعرفها .. وحاولت وهما يضعان الطعام على المائدة ان تتكلم ولكن الضيف كان في حجرة الجلوس غير بعيد عنهما فصمتت مكرهة .

وبعد الغداء انتقل زوجها والضيف الى حجرة الجلوس مرة اخرى وطلب منها زوجها ان تصنع قهوة .. وكرهت من اعماقها كل الضيوف وكل الغرباء ..

وكانت تحمل القهوة في طريقها الى حجرة الجلوس ليأخذها منها زوجها على الباب ولكنها سمعت صوت قطار الساعة الرابعة وتحيرت ماذا تفعل ؟؟ انها تريد ان ترى القطار ونسيت كل الكلام الذي كانت تريد ان تقوله لزوجها واصبح كل همها ان ترى القطار .. لا يمكنها ان تدخل الحجرة وبها رجل غريب وكذلك لم يعد في استطاعتها ان تجري على السلم وتصعد فوق السطوح .. وانحنت تطل من ثقب الباب وهي جد خجلة فوجدت زوجها قد ملأ النافذة بجسمه وانحنت اكثر فاستطاعت ان تلمح رأس زوجها وهو يتحرك بسرعة ولم يجلس الا بعد ان مرت اخر عربة ولم تر وجهه ولكنها سمعته يقول للضيف :

يا اخي حاجة غريبة جدا .. فتحي بقى له اكثر من خمسة وعشرين يوم ما بعتش جوابات ... الواد ده وحشني قوي .. تصور النهار ده رحت سألت الجماعة اللي ولادهم وياه كلهم قالوا برضه انهم ما بعتوش من زمان .. دي حاجة تضايق .

واهتزت صينية القهوة في يدها .. اوشكت ان تقع منها وملأت الدموع عينيها وتراجعت بعيدا عن الباب ووقفت لحظة حائرة مضطربة وتمنت في هذه اللحظة ان تجد نفسها الان مع زوجها وحدهما وان تسمعه يتحدث اليها ويتحدث اليها ويتحدث وتظل هي منصتة تصدق كل ما يقول .. وتقدمت خطوات ثم نقرت على الباب برفق وحين وقف يأخذ منها القهوة ابتسمت له ابتسامة كبيرة وتعلقت عيناها بوجهه .. وعندما اصبحت وحدها همست لنفسها ـ انه ابنه .. ابنه .

القاهرة

عبد الله خيرت